

# الخطابة في صدر الإسلام وظائف وأسلوبها الحجاجي



يحيى بن أحمد فائدي



## الخطابة في صدر الإسلام وظائفها و أسلوبها الحجاجي

يحي فاندي

### موجز البحث

نحاول في هذا البحث تسليط الضوء على أبرز الوظائف التي اضطلعت بها الخطابة في صدر الإسلام. وفترة صدر الإسلام نقصد بها الفترة الممتدة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه و في مرحلة ثانية سنبيّن الخصائص الحجاجية للخطبة في هذه الفترة .

الكلمات المفتاح : وظائف- الخطابة – الحجاج

### مقدمة

إنّ الاهتمام بالخطابة من المسائل التي انصرفت إليها أقلام الكتاب قديماً<sup>1</sup>. و اللافت في المؤلفات التي عالجت الخطبة<sup>2</sup> أنّها مناهضة للشعوبية<sup>3</sup> ونستدلّ على هذا التيار بقول الجاحظ<sup>4</sup> " أردنا أبقاك الله - أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من البيان والتبيين بالردّ على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب و ملوكهم ". فالعناية بالخطبة ضمن تيار الدفاع عن العرب دليل على أنّ الخطبة من الخصائص التي يعتزّ بها العربيّ ويُفاخر بها الأعمى. ولعلّ هذا الاحتفاء بالخطبة يدعونا للتساؤل عن الدور الذي لعبته الخطبة في

<sup>1</sup> يُنظر في هذا على سبيل التمثيل لا الحصر :

الجاحظ؛البيان و التبيين ؛ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ؛مؤسسة الخانجي بالقاهرة ؛ الطبعة الثالثة؛الأجزاء الأربعة من الكتاب  
ابن قتيبة ؛عيون الأخبار ؛مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1928 ؛ الطبعة الأولى ؛ المجلد الثاني

<sup>2</sup> المصطلح "خُطبة" استعمله الجاحظ في البيان والتبيين و سنستعمله ذات المعنى لمصطلح "خطابة"

<sup>3</sup> الشعوبية : حركة تبغض العرب و تفضّل العجم

<sup>4</sup>

الجاحظ؛البيان و التبيين ؛ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ؛مؤسسة الخانجي بالقاهرة ؛ الصفحة الخامسة ؛ الجزء الثاني



العصور الإسلاميّة الأولى؟ ثم ماهي سمات الخطبة التي جعلتها تضطلع بما أوكل لها من أدوار؟. وسنحاول من خلال عملنا الإجابة عن التساؤلين المطروحين

## 1. وظائف الخطبة في صدر الإسلام

### 1.1. الوظائف الدينيّة

اضطلعت الخطبة بوظيفة نشر الدين الجديد فاستند الرسول صلى الله عليه وسلم إلى البلاغة والفصاحة ليبلغ رسالته<sup>1</sup>. فكانت الكلمة سبيلا للموعظة الحسنة و الدعوة لتقوى الله فقد كانت خطبة الجمعة و العيدين فرضاً ولا يخلو الحجّ أو العمرة من الخطب التي تشرّع للدين الجديد وتبرز تعاليمه و في هذا السياق نورد شيئاً من خطبة رسول الله<sup>2</sup> "أيها الناس، إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم، وإنّ لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم. إن المؤمنَ بين مخافتين: بين عاجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ به، و بين أجلٍ قد بقى لا يدري ما الله قاضٍ فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، و من دنياه لآخرته، و من الشبيبة قبل الكبرة، و من الحياة قبل الموت، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد مُستعجب ولا بعد الدنّيا من دارٍ إلا الجنّة أو النّار" و من خطبه الناشرة للإسلام و الناهية عما حرّم الله خطبة الوداع و يقول فيها صلى الله عليه وسلم<sup>3</sup>

"أوصيكم عباد الله بتقوى الله و أحثكم على طاعته و أستفتح بالذي هو خير"

و موضوع الخطبة بهذا انتقل من المنافرة بين القبائل و خطب النكاح و العقود في الجاهليّة ليصبح رسمياً أكثر. و وظيفة دينيّة أساسا واستمرّ إرشاد الناس و وعظهم مع أبي بكر الصديق الذي يقول في إحدى خطبه التي يرويها ابن قتيبة<sup>4</sup>

1

يُنظر: شوقي ضيف؛ تاريخ الأدب العربي؛ العصر الإسلامي الجزء الثاني؛ دار المعارف بمصر؛ الصفحة 106

2

الجاحظ؛ البيان و التبيين؛ تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون؛ مؤسسة الخانجي بالقاهرة؛ الجزء الأول؛ الصفحة 302؛303 و ذات الخطبة في عيون الأخبار لابن قتيبة؛ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1928؛ الطبعة الأولى؛ المجلد الثاني الصفحة 231

3

الجاحظ؛ البيان و التبيين؛ تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون؛ مؤسسة الخانجي بالقاهرة؛ الجزء الثاني؛ الصفحة 31

و ذات الخطبة يُوردها ابن قتيبة؛ عيون الأخبار؛ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1928؛ الطبعة الأولى؛ المجلد الثاني الصفحة 231

4

عيون الأخبار لابن قتيبة؛ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1928؛ الطبعة الأولى؛ المجلد الثاني الصفحة 232



" أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله وحده و أن تثنوا عليه بما هو أهله و تخلطوا  
الرجبة بالرهبة و الإلحاف بالمسئلة . فإن الله أثنى على زكريا و أهل بيته فقال (( إنهم  
كانوا يسارعون في الخيرات و يدعوننا رغبا و رهبا )) ."

## 2.1. الوظائف الاجتماعية:

نقلت الخطب تعاليم الإسلام المنظمة لأوضاع الناس الدنيوية و من التعاليم تحريم الجور  
و القتل و هي من ممارسات الجاهلية يقول الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>1</sup>

" إن دماءكم و أموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا"  
و إلى جانب الجور يحرم الأخذ بالثأر بالطريقة الجاهلية التي يشهد الشعر الجاهلي  
بعنفها و إبادة الصغير و الكبير يقول صلى الله عليه وسلم<sup>2</sup>

"وإن دماء الجاهلية موضوعة و إن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث  
بن عبد المطلب " و بالمقابل يسّ الإسلام القصاص بدلا من عشوائية الفتك يقول  
صلعم<sup>3</sup>

" و العمد قود ، و شبه العمد ما قتل بالعصا و الحجر و فيه مائة بعير ، فمن زاد فهو  
من أهل الجاهلية " فالنفس بالنفس و من قتل مسلما عمدا فديته مائة بعير لأهل القتل  
و من شأن هذا تنظيم الحياة الاجتماعية . و علاوة على تنظيم العلاقات الاجتماعية بين  
العرب تقوم الخطب ببيان كيفية التعامل مع غير العرب أو "العجم" . و معاملة الغريب  
تقوم على المساواة و التأخي بينه و بين العربيّ يقول صلعم<sup>4</sup>

"أيها الناس ، إن ربكم واحد ؛ و إن أباكم واحد كلكم لآدم و آدم من تراب . أكرمكم عند  
الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير . وليس لعربيّ على عجمي فضل إلا بالتقوى ."

1

الجاحظ؛ البيان و التبیین ؛ تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون ؛ مؤسسة الخانجي بالقاهرة ؛ الجزء  
الثاني؛ الصفحة 31

2 المصدر السابق و ذات الصفحة

3 المصدر السابق ؛ الصفحة 32

4 المصدر السابق ؛ الصفحة 33



فالخطبة بهذا تكون مشرّعاً لشؤون الدنيا غير أنّ وظيفتها لا تقف عند تنظيم العلاقات بل تقنّن الخطب المعاملات الماليّة فأنكر الإسلام الربا فقد قال الرسول<sup>1</sup> في ذلك " إنّ ربا الجاهليّة موضوع ، و إنّ أوّل ربا بدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب"

وفي الخطب تحريم لأكل المال بالباطل يقول الرسول في هذا<sup>2</sup>:

"أيها الناس ، إنّما المؤمنون إخوة و لا يُحِلّ لامرئ مسلم مالُ أخيه إلاّ عن طيب نفس منه". ومن المعاملات الماليّة الميراث .وقد حدده الرسول في خطبة الوداع بالثلث<sup>3</sup>

" أيها الناس ، إنّ الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز لوارث وصيّة ، ولا تجوز وصيّة في أكثر من الثلث ."

كما عملت الخطبة على إبطال عادات جاهليّة يقول صلعم<sup>4</sup>

" إنّ مآثر الجاهليّة موضوعة ، غير السّدانة<sup>5</sup> و السقاية<sup>6</sup>" .و فضلا عن العلاقات و العادات الاجتماعيّة ضبط الإسلام عبر الخطب الأشهر المقدّس و أبطل النسيء<sup>7</sup>

يقول صلعم<sup>8</sup>:

"أيها الناس : إنّ النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يُحلّونه عاما و يُحرّمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله . إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات و الأرض . و إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات و الأرض ، منها أربعة حرّم : ثلاثة متواليات و واحد فرد : ذو القعدة و ذو الحجّة و المحرم، و رجب الذي بين جمادى و شعبان ."

و بالمقابل مما ذكرنا من أمور عامة تخصّ المجتمع توجد شؤون خاصة أسريّة قننتها الخطب في صدر الإسلام كبيان حقوق الرجل على زوجته " لكم عليهنّ ألاّ يُوطئن فرشكم غيركم ، ولا يُدخلن أحداً تکرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضوهن و تهجروهنّ في المضاجع و تضربوهنّ ضربا غير مبرح"<sup>9</sup> و لئن كان للرجل حقوق من الجاهليّة و حتّى الإسلام فالجديد حقوق المرأة

1 المصدر السابق ؛ الصفحة 31

2 المصدر السابق ؛ الصفحة 33

3 المصدر السابق ؛ الصفحة 33

4 المصدر السابق ؛ الصفحة 31

5 السّدانة : خدمة الكعبة

6 السقاية : سقاية الحاج من الماء و الزبيب

7 النسيء : تأخير حرمة شهر من الأشهر الحرم للقتال في ذلك الشهر و استباحة الحرمات

8 المصدر السابق ؛ الصفحة 32

9 المصدر السابق ؛ ذات الصفحة



"عليكم رزقهنّ و كسوتهنّ بالمعروف و إنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً أخذتموهنّ بأمانة الله و استحلتنم فروجهنّ بكلمة الله .فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنّ خيراً"<sup>1</sup> . ومن الشؤن الأسيّية أيضا مسألة ولد الفراش . و قديما في الجاهليّة ينسب ولد الزانية إلى والده الذي زنا إذا ما اعترف به الأب حتّى و إن ولد في غير فراشه . " والولد للفراش وللعاهر الحجرُ من ادعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنةُ الله و الملائكة و النّاس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل"<sup>2</sup>

### 3.1. الوظائف السياسيّة:

أوكل إلى الخطبة إلى جانب وظيفتها الدينيّة وظيفه أخرى تتمثل في تجييش الجنود . وقد لهج الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطب المستنفره للمسلمين

" ولا تفرطوا في جنب الله قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم و عادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم و سماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة و لا قوة إلا بالله فأكثرُوا ذكر الله و اعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضي على الناس و لا يقضون عليه ويملك من الناس و لا يملكون منه الله أكبر و لا قوة إلا بالله العظيم"<sup>3</sup>

ونتبيّن من خلال هذه الخطبة استنفار المسلمين للجهاد باعتباره واجبا دينيا اجتبا الله لأجله المسلمين و استمرّ القادة بعد رسول الله في توظيف الخطب للتعبئة الحربيّة يقول عتبة بن غزوان في فتح الآبلة<sup>4</sup> "أما بعد فإن الدنيا قد تولت حداء<sup>5</sup> مدبرة و قد أدنت أهلها بصرم ، و إنما بقي منها صباية كصباية الإناء يصطبّها صاحبها . ألا و إنكم منقولون منها إلى دار لازوال لها فانتقلوا بخير ما يحضركم " و أفضل الأعمال الجهاد طبعاً . وقد استنفر علي في وقت لاحق المقاتلين في خطبة مهيبه شديدة<sup>6</sup> بعد مقتل عامله في الأنبار "أما بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة . فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الدلّ و شمله البلاء و لزمه الصغار و سيم الخسف و منع النّصف . ألا و إني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا و سرا و إعلانا و قلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم فو الله ما غزي قوم قطّ

1 المصدر السابق ؛ ذات الصفحة

2 المصدر السابق ؛ الصفحة 33

3

تاريخ الطبري ، نسخة إلكترونيّة عن مكتبة نور ، الجزء الثاني ، الصفحة 8

4

الجاحظ ؛ البيان و التبيين ؛ تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون ؛ مؤسسة الخانجي بالقاهرة ؛ الجزء الثاني ؛ الصفحة 31

5 حداء : سريعة الإدبار

6 المصدر السابق ؛ الصفحة 54/53



في عقر دارهم إلا ذلوا فتواكلتم و تخاذلتم و ثقل عليكم قولي و اتخذتموه و راءكم ظهرياً حتى شنت عليكم الغارات . هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار و قتل حسّان (أو ابن حسّان البكري) و أزال خيلكم عن مسالحتها و قتل منكم رجالاً صالحين . و لقد بلغني أن الرّجل منهم كان يدخل على المسلمة و الأخرى المعاهدة فينزح حجلها قلبها و رعائها ثم انصرفوا و افرين و ما كلم رجل منهم كلما فلو أن أمراً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً، فيا عجباً من جدّ هؤلاء في باطلهم و فشلهم في حقكم ، ففُبحاً لكم و ترحاً، حين صرتم هدفاً يُرمى،... يُغارُ عليكم و لا تُغيرونَ، و تُغزُونَ و لا تُغزُونَ، و يُعصى الله و ترضونَ، فإذا أمرتكم بالسّير إليهم في أيام الحرّ قلتم هذه حماره القَيْظِ، أمهلنا ينسلخ عنا الحرّ، وإذا أمرتكم بالسّير إليهم في الشتاء قلتم ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كلُّ هذا فراراً من الحرّ و القُرّ، فإذا كنتم من الحرّ و القُرّ تغفرون فأنتم والله من السيِّفِ أفرّ.

يا أشباه الرجال و لا رجال، خلوم الأطفال و عقول ربّات الحبال، لوددت أني لم أركم و لم أعرفكم، معرفةً والله جرّت ندماً، و أعقبت سدماً، قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، و شحنتم صدي عيظاً، و جرّعتُموني نعب التهمام أنفاساً، و أفسدتُم علي رأيي بالعصيان و الخذلان، حتى لقد قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع و لكن لا علم له بالحرب، لله أبوه؛ و هل أحد منهم أشد لها مراساً، و أقدم فيها مقاماً مني، لقد نهضت فيها و ما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرّفت على السّتين، و لكن لا رأي لمن لا يطاع." و أنا أورد هذه الخطبة على طولها و قد أنقصنا منها لما تحمل من عبارات مؤججة للحمية مما من شأنه حث المقاتلين لساحات الوعى . و إلى جانب الحثّ على القتال اضطلعت الخطبة بوظائف سياسية أخرى منها تبيان سلوك السائس تجاه الرعية

وخطبة أبي بكر التي يسوق فيها مبادئ التعامل مع الرعية<sup>1</sup> من نماذج ذلك

" و خير الملوك من آمن بالله و حكم بكتاب الله و سنّة نبيه صلى الله عليه و سلم . و إنكم اليوم على خلافة نبوة و مفرق محجة و سترون بعدي ملكاً عضوضاً و أمة شعاعاً و دماً مفاحاً فإن كان للباطل نزوة و لأهل الحق جولة يعفوها الأثر و تموت السنن فالزموا



الجماعة . وليكن الإبرام بعد التشاور و الصفقة بعد طول التناظر " ووفق هذه الخطبة هناك ثلاثة أمور ينبغي على السائس اتباعها :

- ✓ الإيمان بالله
- ✓ الحكم بكتابه وسنة نبيه
- ✓ الاستشارة قبل القرار

و قد شغلت الخطبة وظيفة سياسية هامة بعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم فقد خطب أبو بكر خطبته الشهيرة لشد الصفوف " لما قبض النبي كان أبو بكر غائبا فجاء بعد ثلاث ولم يجترئ أحد أن يكشف عن وجهه حتى اربد بطنه فكشف عن وجهه وقبل بين عينيه ثم قال بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتا ثم خرج أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ثم قرأ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين<sup>1</sup> " ومن شأن هذه الكلمات توحيد الصفوف بعد أن بدأت نار الشقاق تظهر فقد اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة و أجمعوا على مبايعة سعد بن عبادة وهو ما يرويه الطبري في تاريخه<sup>2</sup>

" وكان عمر يقول لم يمت وكان يتوعد الناس بالقتل في ذلك فاجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة. فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبدة بن الجراح فقال ما هذا فقالوا منا أمير ومنكم أمير"

و أمام سعي الأنصار للخلافة ألقى أبو بكر خطبته التي ثبتت الملك بقريش

"نحن المهاجرون أول الناس إسلاما و أوسطهم دارا و أكرمهم حسبا و أكثر الناس ولادة في العرب و أمسهم رحما برسول الله أسلمنا قبلكم و قدمننا في القرآن عليكم فأنتم إخواننا في الدين و شركاؤنا في الفيء و أنصارنا على العدو ، أويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا ، نحن الأمراء و أنتم الوزراء ؛ لاتدين العرب إلا لهذا الحي من قريش و أنت محقوقون ألا تنفوسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم<sup>3</sup> " وبعد تسلّم السلطة خطب أبو بكر في الناس خطبة تطمئن النفوس و تحبط الفتن و تلمّ شتات الجماعة وهي كالتالي

1

تاريخ الطبري ،نسخة إلكترونية عن مكتبة نور ، الجزء الثاني ، الصفحة 233

2 المصدر السابق ؛ ذات الصفحة

3 ابن قتيبة ؛ عيون الأخبار ؛ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1928 ؛ الطبعة الأولى ؛ المجلد الثاني الصفحة 232 / 233 و ذات الخطبة يوردها الطبري على نحو مختلف قليلا في تاريخه الجزء الثاني صفحة 233/234



"إني وليت أمركم ولست بخيركم ولكنّه نزل القرآن و سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. اعلّموا أيّها الناس أنّ أكيس الكيس التقي وأنّ أحمق الحمق الفجور وأنّ أقواكم عندي الضعيف حتّى أخذ له بحقّه و أضعفكم عندي القويّ حتى أخذ منه الحق<sup>1</sup>"  
فهذا الكلام الرصين لا ينطق به إلا سائس حكيم يعلم جيّدا ما ترغب به الأسماع و الواقع يؤكّد أن أبي بكر ساس الأمور على وجه مقبول ..

و يخطب عمر بعد أبي بكر تقريبا بمثل ما خطب سلفه<sup>2</sup>

" ما كان الله ليراني أهلا لمجلس أبي بكر ثمّ نزل عن مجلسه مرقاة فحمد الله و أثنى عليه ثمّ قال :اقروا القرآن و تعرّفوا به و اعملوا به تكونوا من أهله إنّه لم يبلغ حقّ ذي حقّ أن يطاع في معصية الله . ألا و إني أنزلت نفسي ممن مال الله بمنزلة و الي اليتيم .و إن استغنيت عفت و إن افتقرت أكلت بالمعروف "

✓ نلاحظ أن الخطبة من آداب تسلّم السلطة و من مراسمها

✓ دورها إكساب المتقلّد لزام الملك الشرعية فكلّا الخليفان يستند لأوامر إلهيّة فوضته للملك

و كما كانت للخطبة وظيفة تركيز السلطة فإنها كانت وسيلة ردع اتخذها علي بن أبي طالب لمجابهة خصومه و نستشهد على هذا بقوله<sup>3</sup>

"إنّ الله أدب هذه الأمة بأدبين السوط و السيف ؛ فلا هوادة فيهما عند الإمام "

بهذا نتبين أن الخطبة صار دورها في أواخر حكم عثمان وبداية حكم علي دور المدافع و المهاجم للسلطة السياسيّة و نستشهد على هذا بمناظرة ابن عباس عن صف علي و عيسى بن طلحة من الخوارج

"وعن عيسى بن طلحة قال

قلت لأبن عباس: أخبرني عن أبي بكر. قال: كان خيرا كله، على الحدة وشدة الغضب.

قال: قلت: أخبرني عن عمر. قال: كان كالطائر الحذر قد علم أنه قد نصب له في كل وجه

حباله، وكان يعمل لكل يوم بما فيه، على عنف السباق.

قال: قلت: أخبرني عن عثمان. قال: كان والله صوّاما قوّاما، لم يخذعه نومه عن يقظته.

<sup>1</sup> المصدر السابق ؛ الصفحة 234

<sup>2</sup> المصدر السابق ؛ الصفحة 234/235

<sup>3</sup> المصدر السابق ؛ الصفحة 236



قال: قلت: فصاحبكم؟ قال: كان والله مملوعاً حلماً وعلماً، غرته سابقته وقرابته، وكان يرى أنه لا يطلب شيئاً إلا قدر عليه. قلت: أكنتم ترونه محدوداً. قال: أنتم تقولون ذلك. 1 "

بعد هذا العرض السريع لأبرز وظائف الخطبة ننتقل الآن لبيان الأساليب الحجاجية في هذه الخطب و التي ساهمت في نجاح وظيفتها.



## 2.التقنيات الحجاجية للخطبة في صدر الإسلام

### 1.2. التقنيات الحجاجية لخطبة الرسول (صلم)

#### 1.1.2 بنية الخطبة

تبدأ الخطبة بالحمدلة و لهذا الاستهلال بعد حجاجي لما لحمد الله من أثر نفسي فمن يحمد الله يشعر بالطمأنينة والسلام يقول ابن قتيبة<sup>1</sup>

"تتبع خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت أوائل أكثرها: " الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ". و ما يؤكد دور المقدمة الحجاجي ثبوتها كقاعدة لا محيد عنها إلا في خطبة العيدين

" ووجدت كل خطبة مفتاحها " الحمد " إلا خطبة العيد؛ فإن مفتاحها التكبير ". ويذكر الجاحظ<sup>2</sup> أن الخطبة التي لا تبدأ بالحمدلة تسمى البتراء

"وعلى أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان من التابعين بإحسان، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد، وتستفتح بالتمجيد: «البتراء» " و تنتهي بالسلام عليكم ورحمة الله و بركاته كخطبة الوداع.

#### 2.1.2 الحجج

الحجج القرآنية كانت أهم ما يركز عليه الرسول في بيانه و سميت الخطبة التي تخلو من القرآن شوهاء<sup>3</sup>

1

ابن قتيبة؛ عيون الأخبار؛ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1928؛ الطبعة الأولى  
المجلد الثاني الصفحة 231

2

الجاحظ؛ البيان و التبيين؛ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون؛ مؤسسة الخانجي بالقاهرة؛ الجزء الثاني الصفحة 6

<sup>3</sup> المصدر السابق؛ ذات الصفحة



يقول الجاحظ "ويسمون التي لم توشح بالقرآن، وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: «الشوهاء»" و ترد الآيات إما في شكل اقتباسات كقول الرسول<sup>1</sup> في أول خطبه

بالمدينة

"الحمد لله أحمدته وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا"

و في قوله "من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا" اقتباس من الآية الكريمة<sup>2</sup>

" مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ يَتَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا"

و إما في سياق استشهداد كما ورد في ذات الخطبة سالفه الذكر قوله<sup>3</sup>

"والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فإنه يقول عز وجل ما يبذل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد"

و هي الآية 29 من سورة "ق" " ما يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِي وَمَا أَنَا بِظِلْمٍ لِلْعَبِيدِ"

### 3.1.2 الأسلوب

يعتمد الرسول صلعم على أسلوب أنيق بعيد عن التكلف يصفه الجاحظ في بيانه<sup>4</sup> فيقول

"وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم، وهو الكلام الذي قلّ عدد

حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك

وتعالى: قل يا محمد: "وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ"

<sup>1</sup>تاريخ الطبري، نسخة إلكترونية عن مكتبة نور، الجزء الثاني، الصفحة 7

<sup>2</sup>سورة النساء الآية 80

<sup>3</sup>تاريخ الطبري، نسخة إلكترونية عن مكتبة نور، الجزء الثاني، الصفحة 7

<sup>4</sup>

الجاحظ؛ البيان و التبيين؛ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون؛ مؤسسة الخانجي بالقاهرة؛ الجزء الثاني الصفحة 16/17



. فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته.

والغاية واضحة من مجانية الوحشي من القول وهي الإبلاغ و الإقناع. إبلاغ بالرسالة المكلف بها و إقناع باتباعها . إلى جانب سلاسة اللغة نلحظ في أسلوب الرسول ميلا للمقابلات كقوله<sup>1</sup>

"وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة" يقابل نوره و موعظته "فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل" ولعلّ هذه المقابلة وغيرها مبيّن للتغيير الذي حدث و خادمة للحجاج فمن اتبع الرسول فقد انحاز إلى النور و من لم يتبع ظلّ على غيّه و تيهه . وهذه الثنائيّة هي قوام الدين وهي الترهيب من الله و الترغيب في مرضاته . و إلى جانب اللغة و أسلوب المقابلات يعتمد النبيّ على التكرار و من شأن التكرار تثبيت الفكرة و حمل السامع على الاقتناع بالفكرة ففي خطبة الرسول الأولى بالمدينة<sup>2</sup> تكرّرت الوحدة المعجمية "الله" ست وعشرين مرّة و الجملة "تقوى الله" ترددت خمس مرات . وعلاوة على هذا نرى أسلوب النداء مساعدا في الحجاج لعمله على شدّ الأسماع و الرسول يكثر منه فقوله "أيها الناس" تكررت ثمان مرات في خطبته الشهيرة في حجّة الوداع<sup>3</sup> وكذلك يحضر الاستفهام و الدعاء "ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد" .

بهذه التقنيات الحجاجيّة توصّلت الخطبة لإتمام وظيفتها التي أوكلت إليها في عهد الرسول صلى . فكيف سيكون نهج الخلفاء من بعده ؟

1 تاريخ الطبري ،نسخة إلكترونيّة عن مكتبة نور ، الجزء الثاني ، الصفحة 7

2 المصدر السابق ؛ الصفحة 7و8

الجاحظ ؛البيان و التبيين ؛ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ؛مؤسسة الخانجي بالقاهرة ؛ الجزء الثاني الصفحة 31/32/33



## 2.2 التقنيات الحجاجية لخطبة أبي بكر رضي الله عنه

لن نتوقف عند بنية الخطبة و الحجاج القرآني الذي لمسناه في خطب الرسول صلعم لأن أبي بكر واصل في نهجه و إنما سنتوقف عند سيرورة الحجاج التي وظفها أبو بكر . وهذه السيرورة سندرسها من خلال نموذج ذكرناه سابقا لخطبة أبي بكر في حادثة السقيفة<sup>1</sup>

"نحن المهاجرون أول الناس إسلاما و أوسطهم دارا و أكرمهم حسبا و أكثر الناس ولادة في العرب و أمستهم رحما برسول الله أسلمنا قبلكم و قدّمنا في القرآن عليكم فأنتم إخواننا في الدين و شركاؤنا في الفياء و أنصارنا على العدو ، أويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا ، نحن الأمراء و أنتم الوزراء ؛ لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش و أنت محقوقون ألا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم ". نحلل هذه الخطبة في جملة من النقاط هي كالتالي :

- ❖ المهاجرون أسبق في الإسلام إذن هم أولى بالخلافة
- ❖ منزلتهم وسطى فهم أوفق من الأنصار على العدل
- ❖ وأكرم الناس حسبا : الحسب هو المال و كرم الحسب أي كثرة المال وكثرة الجود به فأفضلية أخلاقية ومالية لقريش
- ❖ أكثر نسلا و أقرب نسبا من الرسول صلعم
- ❖ القرآن قدّم المهاجرين على الأنصار يقصد الآية 100 من سورة التوبة<sup>2</sup> و
- ❖ السابِقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار" و كذلك الآية 117 من ذات السورة
- ❖ النتيجة = الخلافة تفويض إلهي للمهاجرين" و أنت محقوقون ألا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم " .

إنّ هذه الخطبة دليل واضح على الاستراتيجية الحجاجية التي زخرت بها خطب الخليفة الأول وما تتمتع به من إقناع للسامعين . ونمضي إلى عمر الآن فنجده لا يقل حجة عن سابقه .

## 3.2.2 التقنيات الحجاجية لخطبة عمر

ننطلق من هذا النموذج لنبيّن أسلوب عمر في الحجاج

"وقام عمر رحمه الله في الناس فقال إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء المهاجرون عن موعود الله سيروا في الأرض التي وعدكم

1

ابن قتيبة ؛ عيون الأخبار ؛ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1928 ؛ الطبعة الأولى ؛ المجلد الثاني الصفحة 232 / 233 وذات الخطبة يوردها الطبري على نحو مختلف قليلا في تاريخه الجزء الثاني صفحة 233/234

<sup>2</sup> سورة التوبة الآية 110 و117



الله في الكتاب أن يورثكموها فإنه قال ليظهره على الدين كله والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولي أهله مواريث الأمم أين عباد الله الصالحون<sup>1</sup>

يتبع عمر نهجا في الحجاج لإقناع المسلمين بالجهاد. قوام هذا المنهج أن للمسلمين الحق في الأرض التي سيفتحونها و الله تعالى هو الذي منحهم الحق "الأرض التي وعدكم الله" و بالتالي فإن المتخلف عن الجهاد قد أسقط حقه . وبالإضافة لتجيش الجنود استعمل عمر بلاغته في وعظ الناس كهذه الخطبة

"قالوا وخطب أيضا فقال إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر واتخذ عليكم الحج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا عن غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئا لنفسه وعبادته وكان قادرا أن يجعلكم لأهون خلقه عليه فجعل لكم عامة خلقه ولم يجعلكم لشيء غيره وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة وحملكم في البر والبحر ورزقكم من الطيبات لعلمكم تشكرون ثم جعل لكم سمعا وبصرا .... ولم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد فما عسى أن يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ولا يقدر قدرها ولا يستطيع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته وأذكروا عباد الله بلاء الله عندكم واستتموا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثنى وفرادى<sup>2</sup>

وفي هذه الخطبة بدأ عمر بتعداد نعم الله حتى يجعل ذكر الله واجبا و شكره فرضا . ونأتي الآن إلى الخليفة الثالث عثمان

## 4.2.2 التقنيات الحجاجية في خطبة عثمان

سار عثمان على نهج من الحكمة و التقوى تجلى في خطبته التالية

"قال لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبة فأتى منبر رسول الله فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وقال إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور اعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها وامتعوا بها طويلا ألم تلفظهم ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها واطلبوا الآخرة<sup>3</sup>

<sup>1</sup> تاريخ الطبري ،نسخة إلكترونية عن مكتبة نور ، الجزء الثاني ، الصفحة 361

<sup>2</sup> المصدر السابق الصفحة 574

<sup>3</sup> المصدر السابق الصفحة 590/589



نلاحظ أن حجاج عثمان قائم على العبرة و الاعتبار مما سبق التماسا للموعظة من أحوال الدنيا التي لا تبقى على شيء . أما لاحقة في الخلافة علي بن أبي طالب فنبرة خطابه مغايرة تماما لعثمان كما سنرى .

## 5.2.2 تقنيات الحجاج في خطبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

يقول علي بعد مقتل عامله في الأنبار

"أما بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة . فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء و لزمه الصغار وسيم الخسف و منع النّصف . ألا و إني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا و سرا و إعلانا و قلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم فو الله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا فتواكلتم و تخاذلتم و ثقل عليكم قولي و اتخذتموه وراءكم ظهريا حتى شنت عليكم الغارات . هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار و قتل حسان (-أو ابن حسان البكري) و أزال خيلكم عن مسالحها و قتل منكم رجالا صالحين . و لقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المسلمة و الأخرى المعاهدة فينزح حجلها قلبها و رعائها ثم انصرفوا و افرين و ما كلم رجل منهم كلما فلو أنّ أمرا مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً، فيا عجباً من جد هؤلاء في باطلهم و فشلهم في حقكم ، فقبّحاً لكم و ترحاً، حين صرّتم هدفا يرمى،... يُغار عليكم و لا تُغيرون، و تُغزون و لا تغزون، و يعصى الله و ترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ قلتُم هذه حمارة القيظ، أمهلنا ينسلخ عنا الحرّ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتُم ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فراراً من الحرّ و القفر، فإذا كنتم من الحرّ و القفر تفرون فأنتم والله من السيف أفرّ.

يا أشباه الرجال و لا رجال، خلوم الأطفال و عقول ربات الحجال، لو دنت أني لم أركم و لم أعرفكم، معرفة و الله جرّت ندماً، و أعقبت سداً، قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، و شحنتم صدري غيظاً، و جرّعتُموني نعب التهمام أنفاساً، و أفسدتم علي رأيي بالعصيان و الخذلان، حتى لقد قالت فريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع و لكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم؛ وهل أحد منهم أشد لها مراساً، و أقدم فيها مقاماً مني، لقد نهضت فيها و ما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرّفت على الستين، و لكن لا رأي لمن لا يطاع<sup>1</sup>.

1 الجاحظ؛ البيان و التبيين؛ تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون؛ مؤسسة الخانجي بالقاهرة؛ الجزء الثاني؛ الصفحة 55/54/53



ما سنتوقف عنده في هذه الخطبة من تقنيات حجاجية الجانب الاستفزازي فيها .فقد استعمل علي عبارات لاذعة " أشباه الرجال ،حُلوم الأطفال ، وَعُقُولُ رِيَّاتِ الْحِجَالِ" وجميعها تولد الحمية في النفوس و فضلا عن العبارات يذكر علي في خطبته بانتهاك حرمتين هما:

⇨ العرض : و لقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المسلمة و الأخرى  
المعاهدة فينزع حجلها قلبها و رعائها

⇨ الدين : يُعَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ، وَتُغَزُونَ وَلَا تَغْرُونَ، وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ

فحجة علي نافذة لمساسها الخطوط الحمراء و من لا يحارب لأجل عرضه ودينه فأولى به الموت .

### خاتمة

أسند للخطبة مع بزوغ فجر الإسلام وظيفه نشر الدين الجديد و بيان تعاليمه و مقارعة الناس بالحجة لكن وظائف الخطبة متطورة فبعد الهجرة صار للخطبة وظيفة اجتماعية تمثلت في تنظيم شؤون المسلمين و غير المسلمين من اليهود و الأنصاري ثم صار للخطبة وظيفة سياسية في تجييش الجنود و حماية وحدة المسلمين و تثبيت ملكهم هذا مع المحافظة على وظائف الخطبة السابقة .وقد رافق تطوّر وظيفة الخطبة تطوّر أسلوبها الحجاجي و تغيره من خطيب لآخر هذا مع المحافظة على جوهرها من تحميد و قرآن و أدعية .



## المصادر و المراجع :

### المصادر

القرآن الكريم  
ابن قتيبة ؛ عيون الأخبار ؛ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1928 ؛ الطبعة الأولى ؛ المجلد الثاني  
الجاحظ ؛ البيان و التبیین ؛ تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون ؛ مؤسسة الخانجي بالقاهرة ؛ الطبعة  
الثالثة ؛ الأجزاء الأربعة من الكتاب

الطبري ؛ تاريخ الطبري ، نسخة إلكترونية عن مكتبة نور ، الجزء الثاني

### المراجع

شوقي ضيف ؛ تاريخ الأدب العربي ؛ العصر الإسلامي الجزء الثاني ؛ دار المعارف بمصر

